كل مر سيمر

هبه عبد الله البدور

طرق وحكايات، أحلام تراود ساكنيها بالخوف تارة والأمل تارات،

هواجس تختلج الأفئدة والعقول وتهمس للسحب والرمال والطيور مستجديه عمراً جديد....

في احد صباحات أذار، حيث الشمس الخجلى تلامس الأحلام و تلاحق عيون المتعبين... تتتبع خطوات الكادحين، يخطون يوما بيوم رحلة العمر...

من بين الغيمات و ضباب الشك و اليقين تلقي مذيعة أنيقة المظهر و الصوت، بيانا صباحيا يائسا يصيب جميع ما حولك بالصمت "في البلاد تم تسجيل اول حالة كورونا لمواطن قادم من الخارج".

تالا، طبيبة في مقتبل العمر أقسمت معاهدةً الله أن تكون دواءًا للجراح و صبراً للآلام.

تزامنت كلمات التلفاز مع رنة هاتفها لتهز برأسها " أنا في الطريق " و قلبها يعلم بأن الخطر القادم يلزمه حفنة إيمان وثبات لمحاربة فايروس مجهول

التفاصيل.

كريم، ضابط في الميدان يستعد لقضاء إجازة في أحضان دفء الأسرة، تراجع خطوات بضميره العسكري وقرر البقاء ليكون جزءا من خطة الطوارئ.

تتسارع وتيرة الأحداث ويسكن الخوف القلوب وتعانق الوحدة والفراغ كل شيء طرقاتنا وأماكن لقائنا...مقاعد أطفالنا المدرسية.. يتبدد كل شيء رائحة الخبز من نار أطعمت الجميع...صوت بائع الخضار... وجوهٌ تسكن الطرقات، اختفت...

حتى الشوارع الأكثر أزدحامًا و فوضى يخنقها صمت حظر التجوال.

حتى الوجوه اختلفت!!! لم نعد نرى دفء الابتسامة المخبأة تحت القناع، لإتباع قواعد السلامة...

في المستشفى خلية نحل لا تهدأ.. حركة مستمرة...

الخوف يلفه كلمات تطمئن كل من حضر لعمل فحص الكورونا... قياس درجة الحرارة أصبحت كلمة السر تمنحك حق البقاء، أو العودة للمنزل...

غرف عزلٍ وأصوات تئن من صعوبة التنفس، و ملائكة بيضاء يحومون

بتسابيح السماء لترقد بالأرواح المتعبة.

في إحدى الغرف ترقد سعاد، تبلغ من العمر ٧٠ عاما، كانت في زيارة لابنها في المهجر... عادت والقلب مليءٌ بالحب والذكريات فهي منذ سنوات لم ترى ابنها وأحفادها... عادت بضحكاتهم وكلماتهم. بدلالهم لها..

لم تكن تعلم بأن العودة ستكون في غرفة عزل وجهاز تنفس، لم تعلم بأن الأنفاس التي شهقت بالفرح تزفر الان ألماً و وجعاً...

لا أحد هنا من الأحبة ليبعد عتمة المكان وبرده.. جابت بعينيها المتعبتين بدفء نظرة.... لم يخب رجاؤها والقلوب الطيبة في كل مكان...

ببدلة العزل وقفت أمامها الممرضة الشابة رهام تملك دفء العالم في عينيها...همست في روحها لا تقلقي نحن نعمل لتتعافين...كوني قوية لتمنحي عزمنا عزماً...

سعاد: أشعر أنني أختنق.

رهام: سنقوم سويا بتمارين تنفس، سويا سننتصر..

تشعر سعاد بقليل من انفراج النفس لربما دفء قلب رهام بدد الاختناق....

رهام: في كل ساعة سأكون هنا سنواضب على الدواء والمعنويات المرتفعة، تذكري من تحبين وأنهم بانتظارك...

رهام تعلم جيدا بأن وضع المريضة ليس جيدا..أوصاها الأطباء بأن تكون قريبة منها تحسبا لأي طاريء ولكن واجبها يحتم عليها بأن تزرع الأمل...

اختنقت روحها من آلام الأرض لتعلن رحيلها إلى نقاء السماء...

قاومت بأعوامها السبعين وضعف رئتيها التي ملأت العالم عطرآ، ونبض القلب المتهالك...كان يومآ البيت الدافئ يقيك برد الظلم...

كان وداعآ باردآ فلا أحد هناك والجسد النحيل سيوارى الثرى بوجود واحد فقط من الأبناء، قاس حد الظلم ذاك الموت بلا نظرة أخيرة على من أفنت عمرها لأجلنا بلا قلوب تلتف حولها تحصنها بالآيات والدعاء وبدون تسابيح الأحبة، تذكر زماناً مضى كأنه كان بالأمس.

يسكن الموت في الطرقات كثيرا من الأحيان هنا في المستشفي لكن في هذا الظرف الموت أشد قسوة، فالقلوب الفت بعضها، يشدك قلب الطبيبة المكسور على مريضتها و ظروف موتها، خلعت القناع من على الوجه المتعب، طبعت عليه ملامح القناع، حددته بالالم و بالصبر.

تمتلئ الغرف سريعا بالمرضى، والوجوه المتعبة لا تختلف عن الوجوه الخائفة شيئا فالجميع في ترقب...

صراخ في إحدى الغرف لصبية في مقتبل العمر وتحمل في أحشائها أول فرحة لها..... تحاول الطبيبة تهدئة روعها وأن الأمور تحت السيطرة وأن بإمكانها إتمام ما تبقى من حملها وإنجاب طفلها حتى وإن كانت مصابة...

في غرفة أخرى يرقد شاب و شابه كان يفترض أن يستقلوا طيارة الأحلام لقضاء إجازة العرس وشاءت الأقدار أن يبدءا حياتهما في المستشفى. نظرت إليه حائرة لم تستوعب بعد ما حدث وما سيحدث....صارحته حيرتها و خوفها " ماذا سيحدث لنا؟؟؟؟ أتظن أنني فأل سيء لك؟؟؟؟

الشاب سنخرج إلى بيتنا الذي رتبناه سويا...كل ما فيه ينتظرنا....بأحرفه بدد جزءا من حيرتها...

فالعمر الذي كانت ترسمه بأحلامها لا يبدأ من غرفة حجر في مستشفي ولا في مصير انسانية تحكمها الكمامات والمعقمات ونشرات الاخبار.

مغتربة مع أسرتها، تسارعت وتيرة الأحداث من حولهم لم يستطيعوا ترتيب أمورهم والعودة للبلاد... مدارس الأطفال هنا لم تنهي فصلها الدراسي

واعمال زوجها غير مستمرة واجبر على اخذ إجازة قصيرة حسب وتيرة أحداث الوباء..

أغلقت قلبها على أسرتها، ولزمت صمتها، لعها تحاول ما تستطيع تبديد الخوف من عيونهم تفاجئهم بما لذ و طاب، تختلق القصص والألعاب....

تمتص الملل والخوف إذا تسلل قلوبهم...

تعاون أطفالها وتشجعهم على تلقي دراستهم عن بعد...

وفي اخر همسات الليل تضع رأسها المثقل محاولة الحصول على قسط من الراحة....

تمتمت " لم أشعر بالخوف يوما في هذه البلاد فأنتم تملؤون أيامنا. الآن أخاف عليكم...أخاف على نفسي لأجلكم...

التفت إليها بقلبه " علينا أخذ الحيطة والحذر، سنكون سويا أقوى، سنتقاسم الأعمال والمسؤوليات..سننظم أمورنا المالية...ونتعاون لتمر الأزمة بسلام.

قد يحدث أن تدعو الله لنفسك بالصحة والقوة لأجل من حولك....تناجي ربك ليلبسك الثبات والرضا لتبثه في من تحب...

تمر اللحظات عصيبة حيث تستشعر خطرا مجهولا من حولك، لا تدري ما سيحدث لدراسة ابنائك فمنهم من لديه امتحانات مصيرية قد تأجلت، والأخرى كان لديها عرضا فنيا عملت من أجله طوال السنة قد ألغي..

تفاصيل صغيرة تحول الحياة من حال الى حال..

كان يجلس حائرا مهموما لا يدري ماذا يشعر، أن تكون في غربة لوحدك في هذا الضرف الاستثنائي لا تعلم لو حدث معك شيئ، ماذا سيحدث لعائلتك، لو احتجت شيئا من سيكون العون والسند!!!

أفكار غريبة كالأمواج تتلاطم بك هنا و هناك لتقرر الوقوف في عرض البحر غير آبه بشيء...

يسمع الجميع صوت رنين الهاتف الذي يقشع ضباب الصمت، فصوت الجد والجدة و نور وجهيهما قادر على إحداث دربكة في نبضات القلب وتحويل دقاته إلى سيمفونية دافئة محببة.. صوت الأحباب هو المصدر الوحيد للثبات...

يتناوب الوالدان في جلب الأغراض والمستلزمات البيتية..يتسلح بمستلزمات السلامة يمضي مسرعآ الى أقرب مكان تسوق يأخذ ما يحتاج ويمضي. لم يكن التسوق يوما إعتياديآ بل كان فرصة للعائلة للشقاوة والمناكفة....

طريق الذهاب والعودة على قصره أصبح مريباً! حيث لم ترى ابتسامة الجار أو تلويحة صديق أو رضى متقاعد..فالشوارع شبه خالية والجميع على عجل...

على غير العادة...يستقبلك أطفالك من غير عناق ولهفة الأحضان...

تبدأ مرحلة التعقيم حيث رائحة المعقمات حلت بدل العطور وأصبحت مرسوماً غير قابل للنقض.....

في الشوارع الخالية من الوجوه والضحكات والضجيج هناك حكاية تنسج بلباس عسكري وملامح بين القسوة والإيمان...يطبقون القانون للحفاظ على الأرواح...

يقف شامخاً يتحدى الظروف والخوف...يحمل الوطن في حنايا القلب...

تستوقفه سيدة مسنة يحمل عنها أشياءها بلهفة الأم لابنها...

يخلع عن نفسه بزته العسكرية لعلها تشعر بالدفء فهو دافئ بنظرة من عينيها وبدعاء من شغاف القلب...

في الطرف الآخر من المدينة يوقف سيارة خرقت الحظر...بعد السؤال يدرك أنه صيدلاني متوجه لأحد المرضى لإيصال دواء...

في هذه المحنة إما أن نكون لبعض أو لا نكون...يؤدي له التحية العسكرية تقديراً ويفسح له المجال بالسلامة والرضا....

صافرة الإنذار تدوي ليطرق صداها الأبواب المغلقة ويخبر من خلفها أننا هنا لأجلكم...

سيارة إسعاف تخترق الطرقات متوجهة لأحد البيوت تحمل مريضاً على سرير الحب تلاحقه عيون أسرته يهمسون له بأنهم يحبونه وأنهم معه بالروح والعقل...

من غير المسموح مرافقة المريض في هذه الظروف....

في سيارة الإسعاف كوادر الإسعاف يطوقونه و يمدون يد المساعدة والدفء....

فالمعنويات لا تقل أهمية عن العلاج...

تتحرر قيود العائلة الصغيرة فمنذ اللحظة اصبحت العائلة على امتداد وطن...

طبيب وطبيبة...ممرض وممرضة...مخبري ومخبرية... وصيدلاني وصيدلانية لم يروا عائلاتهم منذ أسابيع: حين يوجعهم الشوق يتوجهون لهواتفهم يلامسون الوجوه وتتشابك الأيدي من على الشاشات وترن

الضحكات على جدران القلب ويتمسكون بالوعد بأن اللقاء قريب...

لعسكري التحف من الشوارع الخالية غطاءآ... رغم قسوة البرد يقف منارة للطمأنينة والأمان....

لأم استودعت الله أغلى ما تملك ليخدم الأرض التي نعشق ويمد يد الخير للعباد... همست له قبل أن يقبل جبينها " الله يوفقك ويحماك" اختصرت همها و حزنها...

في غرفة الولادة تنتظر مصابة بالفيروس اللعين مولودها..يسكنها خوف المرض و برود الوحدة، فلا أحد بجانبها ممن تحب، لم تكن الأمومة يومآ إلا فرحآ واليوم هو خوف وألم...

يطوقونها بالحب رغم التعب، كل يحاول ما استطاع أن يبدد ملامح الوجه الى سعادة لينثرها في قلبها..

آخر ما رأته قبل أن تغمض عينيها وجه طبيبتها الراضي وممرضة بثوب ملائكة تحفها بجناحي رحمة...

لم يمضي وقت طويل حتى بدد صوت الطفل الشجاع رهبة الموقف، فهو أصر القدوم وهزم الفيروس والظروف...

أخبروها أن وجهه كالقمر وصوته تراتيل ملائكة لكنها لا تستطيع رؤيته حتى لا تنقل له العدوى...قامت إحدى الممرضات بتصويره بهاتفها، لتسافر صورته عبر الهاتف لامه في غرفة العزل ولوالده في عتمة البيت، تتلون العتمه بألوان قوس قزح....

في زمن الكورونا للامومة لون اخر.....

يطرق الخير الأبواب والنوافذ يحمل طروداً من كل شيء وأهم شيء الشعور بأن هناك من يفكر بك وبحاجتك وضعفك رغم كل شيء...

حاجة الآخر للطعام والإحتياجات اليومية يطفئه ستر العطاء فلا تعلم يمينك عن شمالك...

فلم تتكسر نظرة الكبرياء في عيني رب الأسرة حين سأله الأطفال عمن "أحضر الأشياء"ليرد بنبرات الحمد "بأنه موظف التوصيل ".....

يعج الهاتف برسائل العائلة والأحباب....

الكلمات عبر الفضاء والصور باتت مصدراً للشعور بالأمان ويبقى للمغترب الحصة الأكبر بانشغال البال...

فالمسافات القريبة شعور بالدفء وتبقى طول المسافات جمر احتراق القلوب يطفئه دموع أم تركع بسجدة طهور....

تصلك رسالة من شخص لم تره منذ زمن فمشاغلنا ألهتنا حتى عن أنفسنا.... تحملك لحظات لبعيد وتحمد الله أن في قلوب الكثيرين ما زال لك بها مكان.....كفرحة الأطفال بيوم العيد فرحة المغترب بكلماتنا واهتمامنا...

تمر علينا أيام الصيام بسكينة الخاشع... موائد العوائل مكانها خال و مسك التراويح يفوح صداه فرادى بالمنازل حتى تكبيرات العيد تعالت للسماء من لهفة الدعاء بأن تكون بالمساجد في العيد القادم....

لم يذهب الأطفال هذا العيد لمنزل جانيت ولم يلونوا بيض الميلاد... والربيع بزهره الحزين لوح للعيد بأن القادم أفضل...

تنصت لصوت الآذان في أجراس الكنائس وترتل ترنيمة الخلاص في آيات سورة على نية اليسر والفرج...

***